بسم الله الرحمن الرحيم

الرِّضَا سَعَادَةُ القَلْبِ وَجَوْهَرُ الإِيمَانِ

الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي جَعَلَ جَوْهَرَ السَّعَادَةِ فِي الرِّضَا بِمَا قَدَّرَ وَقَضَى، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، خَاتَمُ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ، نَصَحَ صَاحِبَهُ فَقَالَ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[١]، ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُ بِإِحْسَانٍ إِلَى دَارِ البَقَاءِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ وَنَفْسِي –عِبَادَ اللَّهِ– بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَإِنَّهَا سَبِيلُ التَّيْسِيرِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ، ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾[٢]، وَاعْلَمُوا –رَحِمَكُمُ اللَّهُ– أَنَّ السَّعَادَةَ المَحْفُوفَةَ بِالرِّضَا هِيَ جَوْهَرُ الحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٣]، فَكَيْفَ نُتْقِنُ فَنَّ السَّعَادَةِ وَفْقَ المَنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ؟

أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ:

إِنَّ السَّعَادَةَ الحَقِيقِيَّةَ تَبْدَأُ بِالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ؛ فَالمُؤْمِنُ يَجِدُ فِي كُلِّ مَا يَكْتُبُهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ خَيْرًا لا يَضْجَرُ مَعَهُ، وَلا يَحْبِسُ هَمَّهُ عَلَيْهِ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: ((عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))، فَاخْتَارَ المُؤْمِنُ الرِّضَا لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ خَيْرٌ مِمَّا مَنَعَهُ عَنْهُ، فَقَادَهُ إِلَى حُسْنِ الشُّكْرِ مُطْمَئِنًا قَلْبُهُ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَغَمَرَتْهُ السَّعَادَةُ عِنْدَهَا يَقِينًا بِكَرَمِ اللَّهِ، مُتَذَكِّرًا قَوْلَهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٤].

---

(١) التوبة: ٤٠
(٢) الطلاق: ٤ ، ٥
(٣) النحل: ٩٧
(٤) التوبة: ٥١

عِبَادَ اللهِ:

قَدْ يَظُنُّ البَعْضُ أَنَّ السَّعَادَةَ فَرَحٌ يَعْقُبُهُ ضَحِكٌ وَسُرُورٌ فِي الوَجْهِ فَحَسْبُ، غَيْرَ أَنَّ السَّعَادَةَ طُمَأْنِينَةٌ فِي القَلْبِ تَنْبُعُ مِنَ الإِيمَانِ، وَفَرَحٌ مَقْرُونٌ بِالاعْتِرَافِ بِالفَضْلِ للهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ، قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[1]، فَيُتَرْجِمُهَا القَلْبُ بِالرَّاحَةِ عِنْدَ الصَّلاةِ بِخُشُوعٍ، وَسُكُونٍ لِلْفُؤَادِ عِنْدَ الدُّعَاءِ، وَبَرَكَةٍ فِي الأَهْلِ وَالمَالِ عِنْدَ الصَّدَقَةِ، وَتَخَلُّصٍ مِنَ الهُمُومِ وَعُقَدِ الحَيَاةِ بِلا مَشَقَّةٍ فِي النَّفْسِ مَعَ صُعُوبَةِ الحَيَاةِ أَحْيَانًا، لأَنَّهُ يَبْنِي سَعَادَتَهُ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾[2].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ:

لَقَدْ وَجَّهَنَا الإِسْلامُ إِلَى احْتِرَافِ مَهَارَاتٍ عَمَلِيَّةٍ لاكْتِسَابِ السَّعَادَةِ، وَمِنْ هَذِهِ المَهَارَاتِ أَنْ يَصْنَعَ الإِنْسَانُ لِحَيَاتِهِ مَعْنًى، وَيَجْعَلَ حَيَاتَهُ ذَاتَ هَدَفٍ نَبِيلٍ، يَبْذُلُ فِيهِ الخَيْرَ وَلَوْ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: ((إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا))، فَلا يَتَنَازَلُ عَنْ أَهْدَافِهِ حَتَّى فِي أَصْعَبِ الظُّرُوفِ. وَمِنَ المَهَارَاتِ فِي طَرِيقِ السَّعَادَةِ أَنْ يَبْنِيَ المُسْلِمُ عَلاقَاتٍ طَيِّبَةً مَعَ غَيْرِهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ، يَزُورُ صَدِيقًا، وَيُسَانِدُ مُحْتَاجًا، وَيَبْتَسِمُ فِي وَجْهِ أَخِيهِ؛ لِأَنَّهُ مَعَهُمْ كَالجَسَدِ الوَاحِدِ، يَقُولُ الْمُصْطَفَى ﷺ: ((مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّى وَالسَّهَرِ))، كَمَا أَنَّ إِدَارَةَ الأَفْكَارِ وَتَرْبِيَتَهَا كَيْ لا تَسْتَسْلِمَ لِلْوَسَاوِسِ، طَرِيقٌ لِبُلُوغِ السَّعَادَةِ، وَذَكِّرْ نَفْسَكَ دَائِمًا بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْكَ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

فَاتَّقُوا اللَّهَ –عِبَادَ اللهِ–، وَتَذَكَّرُوا أَنَّ السَّعَادَةَ قَرَارٌ تَتَّخِذُونَهُ بِأَنْفُسِكُمْ، يُكْتَسَبُ بِالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ، وَيَدُومُ بِشُكْرِهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَعْطَاهُ، يَقُولُ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾[4].

---

(١) يونس: ٥٧ ، ٥٨
(٢) طه: ١١٢
(٣) الذاريات: ٥٥
(٤) إبراهيم: ٧

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِرْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ يَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ البَرُّ الكَرِيمُ.

*** *** ***

الحَمْدُ للهِ الوَدُودِ المُنْعِمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ الأَكْرَمُ، ﷺ، وَعَلَى آلِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الجَزَاءِ الأَعْظَمِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ-، وَاعْلَمُوا أَنَّ هُنَالِكَ فَرْقًا بَيْنَ السَّعَادَةِ وَالمُتْعَةِ العَابِرَةِ، فَالسَّعَادَةُ ثَمَرَةٌ دَائِمَةٌ، أَمَّا المُتْعَةُ العَابِرَةُ فَنَسْمَةٌ زَائِلَةٌ، وَلا تَكُونُ السَّعَادَةُ فِي كَدِّ النَّفْسِ لِطَلَبِ مُتَعِ الدُّنْيَا دُونَ تَغْذِيَةِ الرُّوحِ بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَقَدْ قَالَ ﷺ: ((لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ)). وَمَهْمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ مِنْ تَعَبٍ فِي الدُّنْيَا وَضِيقٍ فِي المَعَاشِ كَانَ بَابُ سَعَادَتِهِ فِي الأَخْذِ بِأَسْبَابِ الفَرَجِ ثُمَّ الاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَاللُّجُوءِ بِالصَّلاةِ لِرَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، فَبِذَلِكَ يَكُونُ المُؤْمِنُ فِي مَعِيَّةِ اللَّهِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (١)، فَالسَّعَادَةُ طَرِيقٌ نَسْلُكُهُ بِأَنْفُسِنَا حِينَ نُحْسِنُ الاخْتِيَارَ صَبْرًا عَلَى البَلاءِ، وَشُكْرًا للَّهِ عَلَى العَطَاءِ، وَحَبْسًا لِلنَّفْسِ عَنِ السُّخْطِ عَلَى المَقْدُورِ، وَحِفْظًا لِلِّسَانِ عَنِ الشَّكْوَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَضَبْطًا لِلجَوَارِحِ عَنْ فِعْلِ مَا يُغْضِبُ الخَالِقَ: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ، وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾(٢).

فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ-؛ فَالتَّقْوَى بَابٌ وَاسِعٌ مِنْ أَبْوَابِ السَّعَادَةِ وَسَبَبٌ مِنْ مُسَبِّبَاتِهَا، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٣).

(١) البقرة: ١٥٣
(٢) لقمان: ٢٢ ، ٢٣
(٣) الأعراف: ٩٦

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى إمَامِ الْمُرْسَلِينَ، مُحَمَّدٍ الهَادِي الأَمِينِ، فَقَدْ أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِذَلِكَ حِينَ قَالَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1].

اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ وسَلَّمتَ عَلَى نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ، وَعَنْ أَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وعَنْ جَمْعِنَا هَذَا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمْعَنَا هَذَا جَمْعًا مَرْحُومًا، وَاجْعَلْ تَفَرُّقَنَا مِنْ بَعْدِهِ تَفَرُّقًا مَعْصُومًا، وَلا تَدَعْ فِينَا وَلا مَعَنَا شَقِيًّا وَلا مَحْرُومًا.

اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ وَاهْدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَقِّ، وَاجْمعْ كَلِمَتَهُمْ عَلَى الخَيْرِ، وَاكْسِرْ شَوْكَةَ الظَّالِمِينَ، وَاكْتُبِ السَّلامَ وَالأَمْنَ لِعِبادِكَ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ كُنْ عَوْنًا للمُسْلِمِينَ والمُسْتَضْعَفِينَ فِي كُلِّ مَكانٍ، وَكُنْ مَعَهُمْ وَثَبِّتْهُمْ وَارْبِطْ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَصَبِّرْهُمْ، وَاخْذُلْ عَدُوَّكَ وَعَدُوَّهُمْ، وَاجْعَلِ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِ يَا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الثَّباتَ فِي الأَمْرِ، وَالعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، ونَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، ونَسْأَلُكَ قُلُوبًا سَلِيمةً، وأَلْسِنةً صَادِقةً، ونَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَنعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا احْفَظْ أَوْطَانَنَا وَأَعِزَّ سُلْطَانَنَا وَأَيِّدْهُ بِالْحَقِّ وَأَيِّدْ بِهِ الْحَقَّ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، اللَّهُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِ نِعمَتَكَ، وَأَيِّدْهُ بِنُورِ حِكْمَتِكَ، وَسَدِّدْهُ بِتَوفِيقِكَ، وَاحفَظْهُ بِعَينِ رِعَايَتِكَ.

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ، وَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ خَيْرَاتِ الأَرْضِ، وَبَارِكْ لَنَا فِي ثِمَارِنَا وَزُرُوعِنَا وكُلِّ أَرزَاقِنَا يَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ. رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ، المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ، الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالأَمْوَاتِ، إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبُ الدَّعَاءِ.

عِبَادَ اللهِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾.

(١) الأحزاب: ٥٦